الأساتذة عبد المطّلب جَبْر..شكّل رحيله فراغاً كبيراً في الأوساط الثقافيّة الجنوبيّة

كتب / سعيد علي نور

سنحتاج إلى زمن ، قد يطول ، حتى يظهر في الديار الجنوبية رجل بحجم ثقافة ، وأخلاق ورقّة الدكتور عبد الطلب جبر - رحمة الله عليه - ذلك الحضرمي القادم من شبام، مشغوفاً بالثقافة والإبداع ، كان كذلك منذ صباه حتى رحل عنّا في أحلك الأوقات التي تحتاج فيها إلى رجال بقامته ، سيتأخّرُ ظهورهم - بالتأكيد - في ظل هذا الوضع المتردي على كل المستويات ، ناهيك عن الثقافة!

بمثل هذا القول رثى الدكتور يوسف إدريس الراحل أمل دنقل في مطلع ثمانينيّات القرن الماضي وهو ينطبق - إلى حدٍّ كبير - عبد المطلب جبر ، وكذلك فإن وصفنا الراحل بأنه ((الأساتذة عبد المطلب جبر)) ليس من قبيل المبالغة في ذكر محاسن الموتى بقدر ما هو الحقيقة عينها ، فهو أستاذ الأدب واستاذ البلاغة والأسلوبية واستاذ العروض واستاذ النقد، قبل الدكتوارة وبعدها وهو الناشط الثقافي والمشارك البرامجي في التلفزيون والإذاعة ، ناهيك عن أستاذيته في الرُّقه ودماثه الخلق والحيادية على النحو الذي عرفنا عنه.

وعندما قلت (أعلاه) أنه شغوف بالثقافة منذ صباه فإنني أشير إلى حادثه بعينها ، ربما لا يعرفها غير المقربين منه وقد عرفتها حين اشتركنا في توثيق حياة الشاعر الكبير لطفي أمان لتلفزيون عدن ، حينها عرض عليّ الراحل "جبر" رسالة مؤرخة بالعام 1967م (من لطفي أمان إلى الطالب عبد المطلب جبر - شبام حضرموت، كانت ردٌّ على رسالة بعث بها عبد المطلب من شبام إلى الشاعر الكبير يطلب فيها نسخة من ديوان (كانت لنا أيام) قال لي جبر : لقد كان الدافع وراء تلك الرسالة أنني استمعت إلى أغنية (زمن كانت لنا أيام) بصوت الفنان أبى بكر سالم بلفقيه ، وكنت أحسب أنها في الديوان ، وكنت حينها في الدراسة المتوسطة .. إذن فقد كان وراء تلك الرسالة ذائقة شعرية فذّة ومُبَكرة ، عرفناها جميعاً فيما بعد ، في تذوقه للشعر ونقده ، في قاعات الدرس والمنتديات والبرامج الإذاعية والتلفزيونية.

عرفت الاستاذ عبدالمطلب جبر منذ (35) عاماً ، ففي العام 1980م التحقت بكلية التربية العليا - قسم اللغة العربية ، كان مدَرّساً لتاريخ الأدب ومدرساً للنقد وكذلك البلاغة والعروض (Four in one) وكان امتلاؤه بتلك المواد العلمية يفوق درجة المدرّس بكثير، على نحو يلفت النظر ويدعو إلى الأنبهار ويُغري بالتحصيل ن وبناءً على ذلك اشد بذمتي العلمية - وليس بذمة جامعة عدن - أن الدكتور جبر كان الدكاترة عبد المطلب جبر قبل حصوله على الماجستير والدكتوراه من العرق وفوق ذلك كله كان حميماً إلى الجميع من زملائه وتلاميذه ، طلاباً وطالبات، صديقاً لهم ، صادقاً معهم حتى صار علاقة مميّزة في هيئة التدريس التي كنا نكن لها كل الأحترام والتقدير.

وكان رديفُ ثقافته الأكاديمية والعامة العالية خُلقاً عالياً وطريقة تدريس متفرّدة ترفع المتلقى إلى مستوى المادة لقد كان شعاره (النجاح مكفول للجميع) وهكذا ... وكأنه كان يُراهنُ على قدرات تلاميذه بالقدر نفسه الذي يُراهن فيه على قدراته على التوصيل.

تعلمنا منه النقد الأدبي على أُصوله وحداثته ، فقد كان في عرضه النقدي يجمع بين الجاحظ والجرجاني وحازم القرطاجني وبين " ريقاتير" و" جون توهين" ويستشهد بشعر المثني في المعاني وأبي تمام في الصور تماماً كما يستشهدُ بشعر (ورد زورت) " وراقبو" ولا سرجى بسنين " وهذا يعنى أنه واحد من مؤسسي الأسلوبية العربية كما هو الدكتور صلاح فضل في مصر والدكتور تمام حسان.

وأتذكرُ - جيداً - أننا :

الدكتور ناصر سعيد العيشي ، وهو أهم علماء النحو والصرف في الجنوب ، اليوم ، وأنا تبنّينا كتابة رسالة إلى القسم بصدد تحديث الدراسات الأدبية ، كنا حينها في السنة الثالثة ، طالبنا

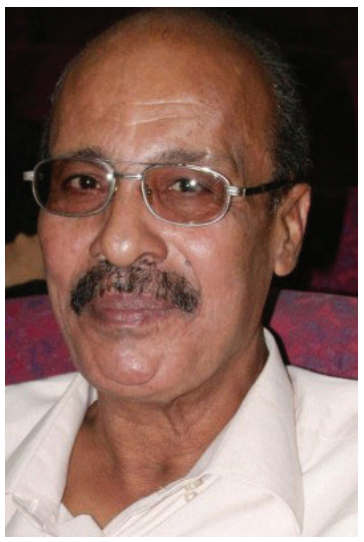

بتدريس نظرية الأدب ومواد أخرى وقد تولى الدكتور العيش صياغة الرسالة ، وهو واضح إلى درجَة القسوة ، طالما كان على حق ، وكان ولا يزال يدفع ثمن صدقه ، يومها أشارت الرسالة حفيظة الدكتورة فاطمة الصافي وهي رئيسه القسم ، بعد مشادّة بينها وبين العيشي أدت إلى توقيفه عند الدراسة وعندما حاولت شرح الموقف والهدف لرئاسة القسم لم أجد أمامي من هو أقرب إلى الخاطر غير الاستاذ عبد المطلب جبر الذي سعى ، بعد أن تفهّم الموقف ، إلى جبر الخواطر وإصلاح الخُلف .

لقد كان مقبولاً لدى الجميع ، قريباً إلى الطلاب ، دون أن يفقد رصانة وهيبة الاستاذ ، متفوقاً في ادائه الأكاديمي بأعتراف كل هيئة التدريس دون أن يُثير حسدَهم ، كان على قدر كبير من التواضع غير المُزيّف، لأن التواضع طبع فيه .

في العام 1988م التقينا في بغداد :

عبد المطلب والدكتور عرفان وأنا ، سنوات الحرب العراقية الإيرانية ، كان يحضّران الماجستير وكنت مدعوّا إلى مهرجان الإذاعة والتلفزيون وقد أرسل معي الاستاذ ناصر بجاح أحد دواوين القرشي عبد الرحيم الذي طلبه عبد المطلب، وقد جمعتني بالراحل أيام في العاصمة العراقية عرفتُ فيها ديدن التواضع في خُلقه.

كنت نزيلاً في أفخم فنادق بغداد على الإطلاق (عشتار شيراتون) وقد قبل الأستاذ عبد المطلب دعوتي على الغداء في الفندق مجاملة ، وفي اليوم التالي حضر ليأخذني للغداء في مطعم شعبي يومها قال لي : أنا لا أحب الرسميّات ولا أكل في الفنادق ذات الخمس نجوم قلت أنت طالب وأنا زائر، أنا مستضاف وهذا أوفر لك قال ، بلهجته الحضرمية (خلّنا نندر من الفندق ، في مطعم سوادني قريب بايعجبك)، وكان ذلك وأثناء تناولنا للغداء في المطعم السوداني سألني عن الأصداقاء في عدن ، وحدّثني عن الحرب بين العراق وإيران ، عندما كانت الصواريخ الإيرانية تقصف بغداد ، كنت أشعر بالطمأنينة وهو معي ، ثم غيّر موضوع الحديث لزيادة أطمئناني .. فقال(تعرف يا سعيد أنا كنت أريد زيارة الكويت ، لأن فيها بعض المراجع نتعلق بمادة بحثي وكنت أعتبر ذلك مستحيلاً وقد ساعدني السفير محمد احمد سلمان وزرت الكويت فعلاً.

وبما أن الحديث وصل إلى الراحل محمد سلمان اليافعي وكان سفيرنا في العراق ، أعنى : سفير جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية فأن هذا الحديث له صله بوفاء عبد المطلب جبر معي ، فيومها قال لي السفير سلمان : أدعوك إلى البقاء لأسبوع من العراق للقيام بجولة فيه على نفقه السفارة ، ولكني لم أفضل البقاء في بغداد وطلبت من السفير أن تتولى السفارة إرسال ما يعادل أربع مئة من أمهات الكتب اشتريتها من بغداد ، إلى عدن عبر البريد الدبلوماسي وقد وافق مشكوراً ، لكن وصول هذه الكتب تأخر كثيراً وعرفت من عبد المطلب بعدها، أنه هو الذي تابع أرسال تلك الكتب إلي ، وبالفعل وصلت إلى مطار عدن الدولي ودفعت مبلغ سته دنانير رسوماً ، وتلك من خيرات ما قبل الوحدة .

وفيما اتذكرون من مقولات الراحل عبد المطلب : أنه عندما كان يتبَّرم بعض الزملاء من قراءة الشعر .. قال : لو أن أحداً يقرأ علي شعراً طوال اليوم لما فكرت في طعام أو شراب .. هكذا قال .وإلى ذلك كان عبد المطلب صبوراً على كل حماقات اصدقائه وأنا أحُدهم ، لا يبادل الفعل بردّ الفعل بل يؤثر الصمت ويُجيد التجاوز ولا يجاهر بالسوء قبل رحيله بعامين أو يزيد اختلفت معه على أمر لا يستحق الخلاف لولا أله يتعلق بالتخصص ، حينها كنت أكتب عملاً دراميًا لأذاعة عدن وقد أوصل إليّ أحدُ القائمين على الأذاعة ملاحظات نسبها إلى الدكتور جبر رحمة الله ، وكانت لي ردة فعل محسوبة أرسلتها إلى جبر عبر الدكتور محمد علي يحيى وهو صديق عمره ، يومها قال لي الدكتور محمد علي : يا سعيد أنا أعرف عبد المطلب لا يحب الصدام ولأن الملاحظات لم تكن لعبد المطلب - وأنما إفتراء عليه فقد رفض عبد المطلب مواصلة قراءة المادة وأغلق هاتفه النقّال دونهم وأغلقت أنا باب النقاش معهم رحمة الله الدكاترة عبد المطلب جبر

ختاماً: ربما كان من تحصيل الحاصل القول إن رحيل الدكتور عبد المطلب جبر شكل خسارة فادحة ، لم تلحق بقسم اللغة العربية وجامعة عدن وحدهما، بل تعدت ذلك إلى الساحة الثقافية الجنوبية ، التي تشهد اليوم أكبر حالة ركود في تاريخها الحديث والمعاصر ، غير أن ما يستدعي التوقف عنده هو أن الحركة الثقافية والأكاديمية في عدن والجنوب ليس في مقدورها ، على المدى المنظور، أن تنتج أكاديّميا ومثقفاً وناقداً بالتركيبة النوعية التي امتاز بها الراحل عبد المطلب جبر، في ظل تراجع العملية التعليمية في الجامعة والمدارس وتردى الحال الثقافية وتراجع دور المتثقف في صناعة الحدث لصالح العسكري والسياسي وانحسار الفعل التاريخي للمثقف وخروجه ، تماماً ، عن قوام الكتلة التاريخية.

الإهداء إلى قسم اللغة العربية
كلية التربية - جامعة عدن

(عليل أم الهوى) يترجّل

الأمناء / خاص :

توفي الشاعر والأديب الكبير علي عبد الرحمن جحاف يوم أمس الأول عن "70 " عاماً ، ومئات القصائد الشعرية ، جمع بعضها في ثلاثة دواوين شعرية :"كاذي شباط " ، " فُل نيسان " ، "رياحين آذار " .

كتب في الغزل والمديح والتصوف وله 34 قصيدة غزلية في مذيعة الـ "mbc" الشهيرة "رانيا برغوث " كان يطمح أن يجمعها في ديوان مستقل مع بداية انتشار هذه القناة في التسعينيات .

رأس تحرير صحيفة " الكشكول " الأدبية.. وكان عضواً في مجلس الشورى.. واشتهرت قصيدته " عليل أم هوى " بعد أن غناها الفنان" أيوب طارش عبسي "وهي باللهجة التهاميّة .

والتي يقول في مطلعها :

واطائر أم غرب ذي وجهت سن أم تهايم
قلبي ضناه أم عذاب
أحيان في أم زيدية وأحيان منها أشايم
شيب وعاده شباب
سقم أشا اتسائلك
واخو أم طيور أم حوايم
عسى ترد الجواب
كم شي نحاكم ولي
يزهد يوطي تمايم
يفتح لقلبي أم كتاب
لكل ما له دواء ..

إلى الرجل الثائر أبدا

نبيل النمي

الصبح لاح
يا أول الثوار
في البلد المباح
وفتى الكريهة
والنطاح
يامن سكبت على
ترابها ألما
وفتحت الجراح
الصمت راح
ومآثر الشهداء
أجراس الصباح
والقوم لو شاروا

وقالوا من فتى؟
لابد أنك أنت
مفتاح الصباح
من يا رفيق الدرب
مثلك للرشاد؟
يعاقر الآلام
يركب صهوة المجد
المؤثل
يرتدي حلل العناد
يسابق الموت
يطوي عمره كمدا
بلا مأوى وزاد
كل الرفاق تساقطوا
وبقيت وحدك باعتداد

من يرتدي حلل
النضال؟

والكل مال
وعلى مداميك الملوك
تساقطوا أورقا
وذلا للسؤال
من يا رفيق الدرب
يجرؤ
أن يكون لك مثال؟
من يا رفيق الدرب
يجرؤ
أن يكون لك مثال؟